حجاجية الكناية عن نسبة الصفة للموصوف
في شعر ابن مقرب العيوني بين البنية والفاعلية
" دراسة بلاغية "

إعداد

د/ أيمن عبد العظيم أحمد

مدرس بقسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة أسيوط

المقدمة

قد جاءت الكناية عند نسبة عند ابن المقرب مشفوعة فيها الصفة لتعطي الموصوف دلائل قوية لا تقبل الجدل أو الشك في تأكيدها لأصحابها من الموصوف، سواء كان هذا الموصوف إنساناً أو شيئا مجرداً، أو شيئاً ملموساً، وتنوعت مصادر المادة المجردة والملموسة، وجاءت فيها النسبة لتؤكد على رؤية ابن المقرب لأهمية الكناية في إيراد الحجة مشفوعة بالدليل والبرهان الذي يؤكد تمتع الموصوف بما نسب إليه من صفات متعددة أو مفردة، ولذا لا يجد القاريء فكاكاً من أسر حجاجها في تأكيد ما يراه الشاعر ابن مقرب العيوني كوسيلة مفحمة ومقنعة لتأكيد الصفة والموصوف معاً، من حيث الوجود والارتباط القوي بينهما كشيء واحد جاء به ابن المقرب ليعطي حجة لا تقبل الشك أو الإنكار لدى القاريء.

حجاجية الكناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف في شعر ابن مقرب العيوني :

تأتي الكناية عن نسبة في ديوان ابن المقرب قليلة نسبياً، وكان من كنايات النسبة عنده قوله ينسب الحزم والبأس والعلا للأمير أبي سنان، يقول مدعياً هذا ببينة وبرهان عبر الكناية المسوقة للقاريء في قوله:

مَولَىً تخيَّرَهُ الإمـــــــام لَمَّـــــا رأى **** مِـــن
فَضلِـــــــهِ وَغِنائـــــــه وَعَنائِـــــــهِ

ورآهُ أهـــــلاً للعُلـــــى فاختَصَّـــــهُ **** بِعَظِيـــــمِ رُتبَتِـــــهِ
وفَضـــــــلِ سَخائِـــــهِ.[1]

يحدث ابن المقرب تواصلاً فعالاً بين الصفة المتمثلة في (العلا ــ الحزم ــ البأس ــ الحزم) والموصوف، وهو الأمير (أبي سنان)، والكناية تعبير ذو عطاء إشاري، وخفاء مغلف بأردية يكسوها الفنان معناه ويحتاج المتلقي للوصول إلى المعنى إلى شيء من الروية وإعمال العقل[2]، ليجد طريقه إلى المعاني ممهداً، فالكناية "في أغلب صورها هذا شأنها، فإنها تمثل للذهن المعنى المجرد بصورة جزئياته المحسوسة،

فيدرك من ثم المعنى المقصود على أخصر طريق من غير استكراه ولا عُسر"[٣]، ففي النسبة هنا طريق مختصر إلى القاريء لإيضاح الصفة، ومن اتسم بها، وأحياناً قصرها عليه هو فقط.

والممدوح (أبو سنان) له من المهابة والأصالة ما يجعل القاريء يؤمن بنسبتهما إليه، يقول ابن المقرب:

مـــــــــنَأَتْ مَهابَتُـــــــــهُ قُلُـــــــــوبَ عِداتِـــــــهِ **** والأُفُـــــــــقَ يملـــــــــؤُهُ بِنُـــــــــورِ بهائـــــــــهِ[٤]

فالمعنى المستقى من قوله (نور بهائه) يعطي كناية النسبة لهذه الصفة التي تميز بها هذا الأمير له هو دون غيره.

والكرم والأصالة صفتان تميز بهما القوم المنتمون إلى قبيلة (ربيعة)، يقول:

وفيهـــــــم رِبـــــــاطُ المُكـــــــرمَاتِ وراثَـــــــةً **** يورِّثُهـــــــا المولـــــــودَ والـــــــدُهُ النَّـــــــدبُ[٥].

تعطي الكناية القاريء الكثير من الأمور التيَ تميّز بها هؤلاء القوم دون غيرهم، وتجعل القاريء "يديم النظر إليها وهي في موضعها، فتقع في نفسك موقع النغمة المطربة التي تتابع الإصغاء إليها، والاستمتاع بها في صمت"[٦]، وتؤكد الألفاظ المكونة للكناية بقوة إيحائها التأثير القوي في المتلقي، فإنه "لا يتولد تأثر أو شعور قوي من غير معرفة، أو إدراك، وأن طبيعة ذلك التأثر، ومدى ذلك الشعور يتوقف على بيان الصورة ومدى وضوح الرؤية"[٧] وتلك الرؤية تؤكد على تميز هؤلاء القوم بتلك الصفات دون غيرهم، "لأنه إذا أثبت الأمر في مكان الرجل فقد أثبت له"[٨]، واختص به دون غيره، والتأكيد لهذه الصفة القوية تعضده أيضاً المبالغة في قوله: ولولا فضل حلومهم...لزلزلت الأرض... ، وهي إن كانت مغرقة في الغلو إلا أنها توسع على المعنى أفقه، وهكذا تكون هذه المبالغة لابن المقرب حيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب بالقول "مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم ، والوصف والنعت والفخر... وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويزيد، ويبديء في اختراع الصور ويعيد ...ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع، والمستخرج من معدنٍ لا ينتهي"[٩]. فالمادة الكنائية دالة ببراعة على نفائس عديدة لا تنتهي.

وابن المقرب ينسب صفات الحجا، والسماحة والذكاء إلى نفسه، يقول:

لـــي البيـــتُ فيهـــمُ والسَّماحـــــــةُ والحِجا **** وذو الصَّبرِ حين البـــاسِ والمِقولُ الـــذَّرِبُ[١٠].

إن النسبة لهذه الصفات لابن المقرب تعطي دلالات ليست المذكورة فقط، بل تثري معاني اخرى تتآزر معها، كالبلاغة والأصالة وغيرها، "فليست تلك الكسوة مجرد غلاف خارجي حينئذٍ، بل إنها السبيل لإثراء المعنى وإخصاب الدلالة، ولولا ذلك ما اتخذت دليلاً على حُسن الآخذ وبراعته"[١١]، ويقر التعبير الكنائي هذه الصفات في عقل القارىء، ووجدانه، وإن "التباين القائم لا محالة بين صور المعاني المتولدة من الألفاظ هو نفسه التباين القائم بين صور المعاني المتولدة في القلوب؛ لأن بنية الكلام في جوهرها بنية خواطر ومعانٍ وأفكارٍ"[١٢] ، وهذا التباين المولد للكناية لا تأتي فيه الألفاظ على هذا النظم عبثاً، بل لتقرير أمر من الأمور يراه ابن المقرب هنا ضرورياً ليعلمه القارىء عنه، لذا يتخير له بنية دالة على هذه المعاني ليقنعه بها، وبنسبتها إليه.

وفي الأمير (أبي شكر مقدم بن ماجد) تأتي الكناية لتؤكد هذه الصفات يقول:

كَم فـــــي أبُوَّتِـــــكَ الأمجَـــــادِ مِـــــن ملكٍ **** بالمَجـــــــدِ مُلتَحِـــــــفٍ بالتَّاجِ مُعتَصِـــــــبِ[١٣].

إن الدور الكنائي هنا يقوم بعملية الإبلاغ والتوصيل الفعال، والإفهام القوي للقارىء، "وعندما تستخدم الصورة لتحقيق النفع المباشر، فإنها تهدف إلى إقناع المتلقي بفكرة من الأفكار، أو معنى من المعاني .... والإقناع له أساليبه المتنوعة .... وتتحول الصورة إلى طرائق جامدة للإثبات تتشابه طريقة صياغتها مع صياغة الاستدلال في المَنطق"[١٤] ويظهر الخروج عن مألوف اللغة وتراكيبها بصورة أكثر جلاءً ووضوحاً.

والمجد أيضاً يتمكن من الممدوح الأمير (الفضل بن محمد العيوني)، يقول:

فَمِـــنْ أيـــنَ يأتِـــي اللـــومُ يا ابنَ محمـــــدٍ **** ومَجـــــدُكَ فـــي بيتِ العُيُونِـــــيِّ زالِـــــدُ[١٥].

إن قول ابن المقرب (مجدك في بيت العيوني زائد) يعطي معاني التخصيص للمجد والنسبة هنا تجعل هناك منطقة إيحائية شعرية مشعة توجه المتلقي مباشرة إليها لتوحي إليه بأكبر قدر من الدلالات والإشارات التخييلية، وتكون الكناية "بمنزلة المصور الذي يصور أولاً ما جل من رسوم تخطيط الشيء، ثم ينتقل من الأدق للأدق، وهذا ....فأما إذا تناسبت الأوصاف فالوجه تقديم ما عناية النفس به أكبر وهو عندها أشهر في الشيء وأظهر فيه بالنسبة إلى غرض الكلام"[١٦]، الذي يطلب فيه ابن المقرب التأكيد على صفة المجد، والأصالة لهذا الممدوح، والمعنى المقصود هو "الحاصل من الاستدلال بالآثار والقرائن المركوزة في القول على المقاصد والأغراض التي أرادها المتكلم كان المعنى البلاغي معنىً استدلالياً يستند إلى العلامة اللزومية"[١٧]، بين الملزوم واللازم، وتقوم بحمل الدهشة والإقناع والمفاجأة للمتلقي. والكناية تجعل المجد ينسب بقوة إلى ابن المقرب، حين يقول:

مَنصِبي في المَجدِ أعلَى مَنصِبٍ **** وعِمادِي فِي العُلَى أوْقَى عِمادِ[١٨].

تنبعث الطاقة الإيحائية بقوة من التعبير الكنائي (منصبي في المجد) وأيضاً (عمادي في العلى) لتعطي امتلاك ابن المقرب للمجد والعلا عبر نسبتهما إليه، وفيه ابن المقرب يعمد إلى "توظيف المعاني والألفاظ .... حتى يحقق أغراضه، وهو التأثير في نفس المتلقي"[١٩]، بغية توجيهها إلى الإقناع بوجود المجد والعلا ، والبنية الكنائية تكتسب فاعليتها من كونها ألفاظاً تأتي لـ "تفيد الإبانة عن الأغراض القائمة في النفوس، والتي لا يمكن التوصل إليها بأنفسها وهي محتاجة إلى ما يعبر عنها، فما كان أقرب في تصويرها وأظهر في كشفها للفهم الغائب عنها، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد وأشد تحقيقاً في الإيضاح عن المطلب، وأعجب في وضعه...."[٢٠]، كان أحق بتحقيق الإقناع.

وابن المقرب ينسب التيه والكبر إلى المتعجرفين في زمانه فيصفهم بقوله:

وكَم غَشومٍ شديدَ البَطْشِ ذِي جَنَفٍ **** بالكِبرِ مُشتَمِلٍ بالتِّيهِ مؤتَزِرِ[٢١].

تعطي الكناية نسبة صفات الكبر والتيه إلى هذا الغشوم المتعجرف والكناية هنا تزيد من التأثير على القارىء، وبها "يزيد الإيحاء من روعة التصوير، لا التصريح، وتضاعف

الإشارة من سحره لا المكاشفة؛ لأن الحيوية في الصورة الأدبية لا تتحقق إلا بالإيحاء فيها بمعان متعددة"[٢٢]، تأخذ القاريء إلى الإقناع بوجود صورة من الكبر والتيه والعجرفة عليها هذا المهجو، وابن المقرب يعبر بكنايته عن الإحساس العميق بالنفور منه، وعلى إثر هذا الشعور يتخير كلمات مصورة لحقيقة الإحساس بإيحاءاتها المضيئة[٢٣]، والتي بها يخاطب الشاعر عقل المتلقي لا عاطفته فقط، ويجاول النفاذ إلى مناطقه بالدليل الدقيق والحجة المقنعة[٢٤].

والملك (الأشرف) الذي عمل على نشر السلام والخير في ربوع الدولة الإسلامية، تأتي الكناية لتسهم في إيضاح هذه المعاني للقاريء في قول ابن المقرب:

أحَلَّتْهُ أعلَى كُلِّ مَجدٍ وَسُؤدَدٍ **** صَوارِمُهُ والمُقرَبَاتُ السَّوابِقُ

وألبَسَهُ تَاجَ المَعالِي سَخَاؤُهُ **** وَإقدَامُهُ والضَّربُ فارٍ وفارِقُ[٢٥].

إن الكناية تثبت الصفات لصاحبها، وهي كناية متفرعة عن المجاز العقلي، (ألبسه سخاؤه...)، و(أحلته صوارمه...)، فهو المجاز العقلي يستمد قيمته الفنية من أنه تعبير عن المعنى الثاني، المراد، وهو الذي يقود إلى الموصوف هنا، والموصوف طالما عُرف، وها هي الصفة موجودة(سخاؤه)، فتظهر إذن كناية النسبة المراد التأكيد عليها وإثباتها، أو معنى المعنى الذي يفهم مما وراء المعنى. وحيث إن "مرجع التأثير ليس مرتبطاً بمقدار المعنى، وإنما مرتبط بكيفية بروزه ووسيلة إدراك النفس له، فإدراكه في الصورة المشاهدة يزيد النفس أنساً به وقبولا له"[٢٦]، لذا يبرز ابن المقرب ما يريده في صورة حسنة يعجب بها القاريء، وتضحى حجة على تمكن الأمير من السخاء والكرم، والألفاظ تستمد طاقتها الإقناعية مما أُضمِر داخلها من إحالة لمعاني الكرم والسخاء إلى القاريء عن الممدوح (الملك الأشرف)، والبيان [لهذه الصفات] لا يكون إلا بإشباعها عند القاريء، وهذا لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه هو أشده إحاطة بالمعنى، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء[٢٧]، وهذا صنع الكناية.

والمجد لا يمكن أن يفارق الشاعر ابن المقرب، إنه معه دائماً، لذا فالكناية توضح للقاريء هذا بقوة حين يطالعها في قول ابن المقرب يمدح الأمير (أبا سنان):

بهِ افتَخَـــــرَت هِنْـــــبٌ وطَالَتْ بِمَجـــــدِه **** لُكَيـــــزٌ وعَـــــزَّت
عَبـــــدُ قيسٍ ووائِـــــلُ

لَـــــهُ ذِروَةُ المَجْـــــدِ المُؤَثَّـــــلِ والعُلَـــــى **** إذا انشَعَـــــبَتْ يَـــــومَ
الفَخَـــــارِ القَبائِـــــلُ[٢٨].

إن فعالية الحجة الكنائية في الاحتجاج لما يريده ابن المقرب تأتي كونها تقيم أفهاماً في الأذهان يُبنَى عليها فاعليتها وقوتها، وإن "المعاني لها حقائق موجودة في الأعيان، ولها صورة موجودة في الأذهان، ولها من جهة ما يدل على تلك الصور من الألفاظ وجود في الأفهام"[٢٩]، والصورة المستخدمة هنا حسية، فالمجد له ذروة يمكن الوصول إليها، وهو أداة يطول بها البنيان، وجودة الكناية تأتي عبر كونها أداة معبرة لا تفقد دلالتها بزوال مجتمعها أو العرف الذي نشأت فيه وفي ظلاله هنا، بل هي من قبيل ما جرت به العادة، واستقر عليه العرف في المجتمع[٣٠]، فمن كان له ذروة المجد فإنه قوي مكين.

وابن المقرب يعرف بالوفاء والحفظ للعهود، لذا فالكناية تؤكد هذا في قوله حين ينسب هذه الصفات إليه عبر قوله المؤكد لما يقوله بقوة:

أَلَســـــتُ أُوفاكُـــــمُ عَهـــــداً وأَحلَمُكُـــــمْ **** عقـــــداً
وأَقوَمُكُـــــم بالفَـــــرضِ والنَّفَـــــلِ

أَلَستُ أَطوَلُكُـــــم في كُـــــلِّ مكرُمَـــــةٍ **** باعـــــاً وأَحمَلُكُـــــم
للحَـــــادِثِ الجَـــــلَلِ[٣١].

يحاول ابن المقرب أن يظهر ما يتميز به من وفاء، وغيره من صفات، فيعمد إلى تعبير إنشائي طلبي يعتمد على الاستفهام بالهمزة، والذي يأتي من وراءه تقرير الصفات التي يحاجج لها، وهي الوفاء، الحلم، والطاعة لله (عز وجل)، فقوله (ألست أوفاكم عهداً وأحلمكم عقداً وأقومكم بالفرض والنفل) الغرض من الاستفهام فيه هو التقرير والتأكيد، وهكذا كانت اللمحة الجيدة للتقرير للمعاني عبر أسلوب ينافي التقرير والتصريح بهذه المعاني مباشرة، والاعتماد على ما يكسب العبارة تأثيراً وقوة عبر الاعتماد على الأسلوب الإنشائي الجزل القوي، فالاستفهام له القدرة على "الاضطلاع بدور حجاجي مع تعويل السائل على الضمني المتخفي، وهو ما يجعل السؤال المطروح غير بريء، إنه يثير إشكالاً .... ويوجه المتلقي إلى وجهة محددة

يقصدها المتكلم قصداً"[٣٢]، ويعمل جاهداً على أن يذعن القارىء لها، ويؤمن بها عن قناعة، وبرهان، لذا فالبنية الماثلة في الاستفهام (ألست أوفاكم) يقرر ابن المقرب بها المعنى في أسلوب يعتمد إعمال العقل لقارئه، والإثبات للصفات المرادة عبر التأويل الذي ينبني من البنية الاستفهامية، وهو لا يقرر للمتلقي ما هو معروف بأسلوب معروف فلا يثير فضولاً لديه، وبما يجعله يعمل عقله ويحرك خاطرته، وإنما يعتمد ما يشركه في التفاعل مع النص، وإعمال العقل بقوة لاستنتاج المعنى، والمراد المطلوب، وإنه "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى"[٣٣] ، فهي تقنعه بتمتع ابن المقرب بالصفات التي يريد إعلام القارىء بها، إنها الحلم، والوفاء، والطاعة لله، وتظهر للقارىء هذه الصفات كما لو كانت مجسمة مرئية.

وأبو سنان، ذلك الأمير الكريم الذي له باع في الكرم والسؤدد يعلم ابن المقرب القارىء بهذه الصفات التي به، ويؤكدها في قوله:

أبو سنـــــانٍ حَلِيـــــفُ المُكرَمَـــاتِ وَمَـــن **** أَنـــافَ سُـــؤدُدُهُ السَّـــامِي على زُحَـــــلِ[٣٤].

يعكس ابن المقرب صورة قوية لصفات تميز بها الأمير (أبو سنان)، إنها الكرم والسؤدد، وليثبتها إلى للقارىء، ويجعله مؤمناً بها، يأتي لما يشكل قوة تقبع خلفها الدلالات بقوة، والتي تؤكد هذا الأمر، وتوضح الكناية ما يريد ابن المقرب إعطاءه لقارئه، والفكرة التي يحاجج لها، "والفكرة في الشعر تتراءى من وراء الصور والخواطر والمشاعر التي تشف عنها الصور .... ويدهش قارئه بهذه المقدرة، ويثير إعجابه"[٣٥]، لما تأتي به الصورة من مخالفة لتوقعاته حول الموضوع الذي يثيره، وبقدر ما يظهر للقارىء الصفة المرادة والموصوف، أي وضوح المراد إلا أن القارىء يحس بأن الصورة ذاتها لا المعنى الحرفي أو الوسيط ــ هي التي تنقله نقلاً مباشراً إلى المعنى المراد، أو يخيل إليه لسرعة وصول هذا المعنى إليه أنه قد فهمه من حاق اللفظ [٣٦]" فهو يحمل الوضوح إليه والبيان المقصود عبر كناية النسبة هنا، ف أبو سنان والمكرمات متلازمان لا ينفصلان.

والأمير (شمس الدين باتكين) يتميز بحمله للهيبة والجلال، لذا يصر ابن المقرب على توصيل هذه الصفات بالدليل المقنع إلى قارئه ولذا يقرها عبر الكناية في قوله :

ولاقَى الرَّعايا خافِضـــــاً مِـــــن جَنَاحِـــــــه **** وفي بُردَتَيـــــــهِ
هَيبَـــــــةٌ وَجَـــــــلالُ[٣٧].

إن فعالية الكناية "تتجلى في أنها تقود المتلقي إلى الغرض مباشرة، مثلما تفعل العبارات الحرفية، وإنما تنحرف به عن الغرض، وتحاوره وتداوره، بنوع من التمويه، فتبرز له جانباً من المعنى، وتخفي عنه جانباً آخر، حتى تثير فضوله وشوقه، فيقبل المتلقي على تأمل الصورة واستنتاجها، والتعبير هنا [عبر الكناية] أقرب إلى المباشرة، ولكنها تشف عن المعاني كما يشف الإناء البلوري عما يحويه[٣٨]، من أشياء تقبع داخله، ويحيط هو بها، ولجوئه للكناية "تلطف في التقديم ... فهو لا يقدم المعنى كما هو، بل يقدمه بضرب من التمويه لا يفارق الصدق في النهاية، وذلك ممكن عندما يتلطف الشاعر في تقريب البعيد من الحقائق"[٣٩] إلى القارىء.

وإذا رجعنا إلى الأمير (بدر الدين) أمير الموصل، نجد ابن المقرب ينسب إليه المجد، ولذا فالكناية فعالة في إثباته وتأكيده للقارىء في قول ابن المقرب:

وكَيفَ يُخشَـــى علـــى مَلِكٍ وقـــد ضُـــــربَتْ **** لمَجـــــدِهِ فـــــــــــي ذُراهُ
الخيَـــــــمُ والكِـــــــلَلُ[٤٠].

تعطي البنية الكنائية استدلالاً قوياً باحتواء هذا الأمير للمجد وما يدور في فلكه، والمقام هنا وإن كان تصريحاً عبر إسناد المجد إلى الجملة التي يعود الضمير فيها على الأمير، إلا أنها تعطي نتائج قوية تنبنـــي عليها أمور ربما غابت عن القارىء، وهي تأتي نتائج لبنية استدلالية واحدة قوامها استخلاص حكـــم مـــن شيئين برهانياً ....بحسب خواص التركيب[٤١]، التي تبرهن على استقرار المجد ووجوده في خيمة هذا الملك، فالبنية المكونة للكناية فعالة في إبراز المجد ونسبته للأمير دون غيره، وعلى هذا تنبثق الدلالة الأدبية [عن الكناية] عندما تتجاوز ألفاظها اللغة التقريرية، وتصدر عن الأولية الإيحائية، باعتبارها إنتاجاً لمعانٍ جديدة غير المعاني الأولى التي يقررها اللسان[٤٢]، فيستقبل العقل مواد الكناية بألفاظها، فيعيد تشكيلها بناء على ما توحي به من دلالات قادرة على تأكيد معاني الجود وتقريرها بقوة لدى القارىء.

وبنية الكناية تأتي فعالة في إقناع القارىء في إقناع القارىء بوجود صفات العـــز والكـــرم والعـــلا للممدوح الأمير (أبي علي مسعود بن الفضل العيوني) يقول ابن المقرب:

أنِـــــخْ فَهـــــــذِي قِبـــــابُ العِـــــزِّ والكَـــرَمِ **** وقِـــــــلَّ فِـــــــي العُـــــلا في هـــــذه الخيَـــــمِ[٤٣].

لا تأتي الكنايات الماثلة في قول ابن المقرب (هذي قباب العز والكرم)، و(كل العلا في هذه الخيم) لتعطي معاني الإشارة إلى القباب، أو الخيم، أو إفادة قبوع العلا داخل هذه الخيم، وإنما تأتي مقصودة لمعاني عبرت عنها اللوازم المعطاة والتي تدل على معاني أخرى هي نسبة العز والكرم، والعلا إلى الممدوح دون غيره، بل والتأكيد عليها، بعد إثباتها له، فالدال الذي يتخفى وراء العبارات يشترك كل من ابن المقرب والمتلقي في إدراكه،، فيستغله ابن المقرب في التدليل على المعنى المراد بشكل خفي، ويهدف لاستثارة ذهن المتلقي وشحذه لكي يساهم في إنتاج الدلالة، فالمستهدف من الكناية لا علاقة له بالمعاني العابرة التي يوحي بها اللفظ، ولا بالألفاظ التي تدل على تلك المعاني، وأن شيئاً ثالثاً في الاعتبار يرمي إليه ابن المقرب قد يفهمه غيره من خلال معرفة نفسيته، وما يتعلق بها ....إلا أن الألفاظ وسيط يلوح لهذه الحقائق[٤٤] ، ويوضحها للقاريء، فابن المقرب يفخر بآله، وما يتمتعون به من صفات حسنة.

والتركيب الكنائي له من القوة بمكان بحيث يستطيع النفاذ إلى عقل المتلقي، ووجدانه، ويحركه ليدهشه عبر الغرابة التي تؤول إليها مدلولات اللفظ، فهو لا يؤكد على أن هذه القباب أو الخيم للممدوح، أو لغيره، بل ينسب صفات بعينها إليه تأتي من التأويل للألفاظ وما وراءها، والبنية الكنائية تنحرف ببنية اللفظ مع ما يجاوره لتخلق صورة جديدة قادرة على التأثير، وتتمثل بالتلميح إلى المعنى المراد نقله والإشارة إليه من خلف ستارٍ ونقل المتلقي إليه نقلاً رقيقاً[٤٥]، وذلك له الفاعلية في استقطاب المتلقي عبر الإيحاء القوي المنبعث من وراء الألفاظ.

والأمير (أبو أحمد بن علي بن عبد الله العيوني)، ينسب المجد والعلا له بقوة، وليس هـذا يسـاق جزافاً، بل تؤكده كناية النسبة، وذلك في قول ابن المقرب يمدحه:

يحِـــــــلُّ المجـــــــدُ أرضـــــاً حلَّ فيهـــــــا **** وتُضـــــــرَبُ للعُـــــلا فيـــــــه الخيـــــــامُ[٤٦].

إن الكناية ماثلة في قوله (يحل المجد أرضا حل بها، وتضب للعلا فيه الخيام)، والطريقة لسوق المعنى هنا، طريقة، أضفت إشعاعاتٍ فنية، تلفت انتباه المتلقي، وتجعله يطرب للأُسلوب الذي صيغ منه المعنى، وتتمتع الكناية بدور إيجابي في التعبير الأدبي يتمثل في الإقناع، وستر المعاني التي يريد الشاعر التنبيه

إليها، ويبتعد عن التعبير عنها مباشرّة، رغبة في إعمال عقل القارىء، مستخدمًا أسلوبًا يحدث هزة في النفس ويلفت انتباه المتلقي، ويجعله يقف ويتأمل بصورة انسيابية تلقائية تفضي إلى إثبات المعنى وتأكيده. ولما كان المعنى المباشر لا يثير المتلقي ولا يحدث لديه ذلك التأثير المتوخى، لذا يلجأ إلى تراكيب جديدة تومئ إلى المعنى الذي يريد، ونجد التعبير مشحونًا بطاقات تأثيرية باستخدام الأسلوب الكنائي هنا، (يحل المجد أرضا حل بها، وتضب للعلا فيه الخيام)، وهذا الاختيار المناسب للكلمات، ثم سوقها وفق نظام تركيبي خرج عن المألوف، حقق له فرادة وتميزًا وأسلوبًا خاصًا، فأدت الكلمات وظيفتها الجمالية التأثيرية إضافة إلى مهمة التوصيل "استنباط المعاني، وفي اختيار الشاعر لأسلوب التعبير عنها، وتأنقه في رسم الكلمات حتى تبدو صورته مقنعة مؤثرة، والشاعر هنا أراد أن يثبت صفة العلا والمجد فلم يقل ذلك مباشرة، إنما نسبة إلى المكان الذي يحلُّ فيه هذا الأمير، فإقناع القارىء بهذا يأتي عبر شحنه بانفعالات تأثيرية يضفيها ابن المقرب عبر أسلوب الكناية، بهدف إقامة الدعوى على الصفات هذه ببرهان وبينة يسلم معهما القارىء بما يريد ابن المقرب إظهاره له، والتأكيد عليه بقوة، فالطريقة لسوق المعنى هنا، طريقة، أضفت إشعاعاتٍ فنية، تلفت انتباه المتلقي، وتجعله يطرب للأُسلوب الذي صيغ منه المعنى.

وآل عيون توضح الكناية باقتدار وتأكيدِ نسبة القوة والتمكن والسيطرة على مقاليد الأمور إليهم، نجد ذلك جلياً في قول ابن المقرب يبين عما يقوله ببينة وبرهان قويين:

أيَّامُنـــــا لم تَـــــزل غُـــــرًّا مُحَجَّلَـــــةً **** ولا تُبـــــاعُ بأيَّـــــامٍ لَيالِينَـــــا

تَرَعـــــرَعَ المُـــــلكُ فِي أبياتِنـــــا ونَشَـــــا **** حتى استَـــــوَى ومُرَبِّيـــــهِ مُرَبِّينـــــا

يا لَيتَ شِعـــــرِي أيُّ الذَّنبُ كان لنـــــا **** حتى به اجتِيـــــحَ دانِينَـــــا وقاصِينـــــا[٤٧].

يترعرع الملك وينشأ في البيت العيوني، دون غيرهم، وهذا تأكيد قوي لصفات التمكن والغلبة، والسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد، والكناية أضحت آلة تنتج العيد من الدلالات التي غابت عن المتلقي في ثنايا التعبير الحرفي، وتجعلها تعلق في الأذهان، وتبقى طويلاً، وهي تخلق للكلمة مجالاً واسعاً من الدلالات، ويقع القارىء في إسارها دون رحمة منها، فهي تحقق عامل الاقتصاد اللغوي بما تتيح من صياغة مركزة لعناصر

الدلالة المتعلقة بالمعنى"[٤٨] ، نتيجة الاستبطان للمعاني المستترة خلف الألفاظ، وتكون هكذا أقدر على النفاذ إلى قلب القارىء، وعقله، من التعبير الحرفي التقريري للمعنى نفسه، وكلما توغل المتلقي في العبارة كلما أوغل في النفاذ للمعاني بقوة، لما تمثله الكناية من مبالغة في التعبير عن تمكن المُلك عند هؤلاء، وهو التأكيد الذي يبغيه ابن المقرب، فإنه "وجب أن تكون الأقاويل الشعرية أشد الأقاويل تحريكاً للنفوس؛ لأنها أشد إفصاحاً عما به علقت الأغراض الإنسانية، إذ كان المقصود بها الدلالة على أعراض الشيء ولواحقه...."[٤٩]، والتي تظهر للمتلقي من خلال الفهم الجيد للكناية وفائدتها، والتي تمكن القارىء من معرفة الحال التي كان عليها قوم ابن المقرب من القوة والغلبة والسيطرة على مقاليد الحكم دون منازع.

وهكذا كانت كنايات ابن المقرب فعالة بما اعتمده من بنية موضحة وقوية قادرة على الأخذ بالمتلقي إلى الإقناع المبني على أسس وبراهين تقود إلى النتائج المرجوة، لذا، لا عجب أن تضحى كنايات النسبة للصفة للموصوف فعالة قادرة على الحجاج الذي مناطه وهدفه إقناع القارىء بفكرة يراها ابن المقرب.

الخاتمة

قد جاءت الكناية عن نسبة عند ابن المقرب في ديوانه لتوكد على أمور كثيرة كان أهمها:

- شكلت الكناية عن نسبة مصدراً وآلية للإقناع عند ابن المقرب في شعره متعدد الأغراض.
- جاءت الكناية عن نسبة قليلة في ديوان ابن مقرب العيوني بصورة ملحوظة نسبيا مقارنة بالكناية عن صفة، أو عن الموصوف عنده.
- جاءت الكناية عن نسبة الصفات المجردة: كالشرف، والعزة، والكرامة، والجود، والسخاء، والقوة، والشجاعة، وغيرها من الصفات التي كانت شائعة في بيئة ابن المقرب، وعصره بصورة فاقت نظيرتها المحسوسة، كالجمال، والقوة الجسدية، وغيرهما من الصفات التي تميز بها أيضاً الموصوفون.
- قلت كنايات النسبة للصفات الحسية عند الشاعر؛ لاهتمامه بالصفات التي كانت محط أنظار بيئته، ولا شك ان هذا لطالما كان الأكثر توجيها لأنظار الشعراء إليه.

- كانت بنية الكناية عن نسبة مترابطة وقوية الفعالية في إقناع الخصم، والمتلقي عامة، بوجود الصفات المراد التأكيد عليها عبر البينة والبرهان المؤكدين عليها، وتخير ما يلائم الموصوف من صفات يغدو جديراً ومعلماً بها.

- كانت الصفات المنسوبة إلى الموصوف مشفوعة بما يؤكدها عند القاريء، وهذا يأتي عبر بنية تعزز من إظهار فعالية الكناية الحجاجية، وأهميتها في الإقناع المبني على الدليل والبرهان.

- عمل ابن المقرب على الاعتماد على ما يكسب كنايته الصدق والإقناع لدى القاريء بنسبتها إلى أصحابها، فكان يتخير لكل موصوف ما يراه أهلاً من صفات لأن يتميز بها دون غيره، وكانت متوافرة بالفعل في موصوفيه.

- كانت الحجة الكنائية وسيلة فعالة في إقناع القاريء بالقضايا التي يرى ابن المقرب أنها مهمة لأن تغدو حقائق لدى القاريء، لذا فالبينة والبرهان اللذان اعتمدتهما الكناية في كل أنماطها ساعد القاريء على الاقتناع بما يعرضه ابن المقرب ويحاجج له من قضايا وأمور يراها.

- كانت الكناية عند ابن المقرب تعتمد التخييل المفضي إلى الإمتاع الذي يقود المتلقي إلى الإقناع الذي لا يأتي فقط نتيجة البراهين والأدلة التي تفضي إلى الاستدلال، بل كان الإعجاب المتولد نتيجة الخيال له أثره الذي لا يقل عن القياس في سوق الإقناع إلى القاريء وحمله على الإذعان لما يراه ابن المقرب.

هوامش البحث:

المصادر:

١- ديوان ابن مقرب العيوني، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الأحساء، المملكة العربية السعودية، مكتبة التعاون الثقافي، طـ٢، ١٩٨٨مـ.

المراجع:

(١) الديوان، صـ٢١، والحباء: العطاء.

(٢) راجع: محمد الدسوقي ، البنية التكوينية للصورة الفنية ، مصر ، دار العلم والإيمان ، ط ١ ، ٢٠٠٩ صـ٢٠٣.

(٣) محمود شيخون، الأسلوب الكنائي، نشأته وتطوره، القاهرة، دار الهداية للطبع والنشر، ١٩٩٦صـ٨٩.

(٤) الديوان، صـ٢١.

(٥) الديوان، صـ٢٩.

(٦) بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، الرياض، دار المريخ للنشر، طـ١، ١٩٨٤، صـ١١٩.

(٧) نفسه، صـ١١٩.

(٨) جلال الدين السيوطي، إتمام الدراية لقراء النقاية، الهند، كلكتا، مطبعة مظهر العجايبي، ١٨٦٤مـ، صـ١٦٦.

(٩) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، القاهرة، ١٩٨٨، صـ٢٧٢.

(١٠) الديوان، صـ٦٦، والمقول الذرب: اللسان الفصيح المنطلق، والحزن: ما غلظ من الأرض، والسهب: ما سهل منها.

(١١) حسن طبل: المعنى في البلاغة العربية، القاهرة، دار الفكر العربي، طـ٢، ١٩٩٨،صـ١١٣.

(١٢) محمد محمد أبو موسى، دراسة في البلاغة والشعر، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٨، صـ٧٢.

(١٣) الديوان، صـ٨٢.

(١٤) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي عند العرب، بيروت، المركز الثقافي العربي، طـ٣، ١٩٩٢، صـ٣٣٢.

(١٥) الديوان، صـ١٤٦، وكيران: جمع كور، وهو الرحل أو أدواته (كور، ٣٩٥٢)، والمقاود: ما يقاد به الفرس أو البعير (قود، ٣٧٧٠).

(١٦) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صـ١٠١.

(١٧) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، بنغازي، ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦، ط١، صـ٧٨.

(١٨) الديوان، صـ١٨١.

(١٩) حسن البنداري، الصنعة الفنية في التراث النقدي، صـ٢١.

(٢٠) الباقلاني، إعجاز القرآن، صـ١١٩.

(٢١) الديوان، صـ٢٤٤.

(٢٢) علي علي صبح، البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر،القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٩٩٥، صـ١٨٠.

(٢٣) نفسه، صـ١٥٤.

(٢٤) راجع: بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، صـ٧٨.

(٢٥) الديوان، صـ٢٩٨.

(٢٦) محمد محمد أبو موسى، التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، القاهرة، دار التضامن للطباعة، ط٢، ١٩٨٠، صـ١٣١.

(٢٧) راجع: هناء حلاسة، الحجة في خطب الخلفاء الراشدين، الأردن، مركز الكتاب الاكاديمي، ط١، ٢٠١٦، صـ١٧٦.

(٢٨) الديوان، صـ٣٥٢، هنب، هو هنب ابن أقصى بن دعمي من ربيعة بن نزار، جد جاهلي قديم، من نسله بكر وتغلب، ولكيز ابن أقصى بن عبد القيس، المؤتل: القديم، انشعبت: تفرقت، ورويت المناصل : المفاصل.

(٢٩) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صـ١٨، و١٩.

(٣٠) راجع: حسن طبل، الصورة البيانية في الموروث البلاغي والنقدي، صـ١٨٨ بتصرف.

(٣١) الديوان، صـ٣٥٧.

(٣٢) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، صـ١٤٥

(٣٣) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، صـ١٣٩.

(٣٤) الديوان، صـ٣٨٥، و٣٨٦.

(٣٥) عبد الله التطاوي، الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد، صـ٢٣٤ بتصرف.

(٣٦) راجع: حسن طبل، الصورة البيانية في الموروث البلاغي والنقدي، صـ٢٨٥.

(٣٧) الديوان، صـ٤٣٦.

(٣٨) راجع: جابر عصفور، مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طـ٥، ١٩٩٥، صـ٥٧.

(٣٩) نفسه، صـ٥٥٧.

(٤٠) الديوان، صـ٤٤٣.

(٤١) راجع: شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، صـ٨٨.

(٤٢) راجع: محمد بو عزة إستراتيجية التأويل من النصية إلى التفكيكية، صـ٤٦.

(٤٣) الديوان، صـ٥٥٤.

(٤٤) راجع: محمد حسين على الصغير، أصول البيان العربي، صـ١٥٦.

(٤٥) راجع: بدوي طبانة، البيان العربي، صـ٢٨٣.

(٤٦) الديوان، صـ٥٦٥.

(٤٧) الديوان، صـ٦١٥.

(٤٨) صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صـ٢٧٥.

(٤٩) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صـ١١٨.